أولية القصة في الادب العربي

الدكتور نوري حمودي القيسي
عميد كلية الآداب /جامعة بغداد

الحديث عن أوليات القصة يعني الحديث عن العقلية التحليلية التي تولي قدرة الابداع على المزج بين عناصر القصة ما تستحق وتهييء فرصة التقدير في اطار العلاقات المحددة فيها وتتمكن من تقويم الاداء المناسب الذي يجعل الحوار موافقا لطبيعة الشخصية ومطابقا لمسلكها الذي تقطعه على امتداد المواقف التي تؤديها وتملك ساحة التصور التي توظفها لتصب في النهاية المطلوبة أو الغاية التي ترمي اليها لتتكامل الوحدة ويتحقق التكامل ·

ان هذا الاستيعاب الشامل والاقتدار الكلي الذي يمكن أن يحيط بهذا العمل والتمكن من خلق الجو المناسب واضفاء الخيال الذي يحرك الصورة باتجاه الفعل ويلون الموقف الذي يعطي القصة جانبا من التأثير لحمل القاريء على المتابعة أو التشويق لا يمكن أن يتحقق الا بارادة قائمة واقتدار فني (في نطاق الظرف المحدد لمعنى الفنية) ·

وهنا تتجلى الفكرة الاولى التي صاحبت قصة الخليقة التي لا نريد أن نذهب وراء أخبارها بما يبعدها عن الحقيقة الثابتة التي تؤكدها

الوقائع التأريخية والتي وجد فيها المؤرخون العرب بداية لكل مؤلف تاريخي وهم يعرضون لها ابتداء من آدم عليه السلام والى حياة الرسول الكريم محمد صلوات الله عليه وهي قصص تتناول خلق آدم والموضع الذي هبط فيه آدم وحواء وأخبار نوح وابراهيم عليهما السلام وبناء البيت وقصة الذبح وولد اسماعيل واسحاق وأيوب ويعقوب وقصة الخضر وخبره وخبر موسى وفتاة يوشع عليهم السلام .. وتبقى قصص وأخبار الانبياء موضع اهتمام المؤرخين الذين فصّلوا أخبارها حتى كانت الايام مصدرا خصبا من مصادر التاريخ وينبوعا صافيا من ينابيع الادب وضربا فنيا من ضروب القصص بما اشتملت عليه من الوقائع والاحداث وما روى فيها من نثر وشعر وما تضمنته من أخبار بقيت أصداؤها تتجاوب أجيالا لما حملته من مأثور الحكم وبارع القول ومصطفى المواعظ ورائع الكلام ..

ولان العرب كانوا يجدون في اسلوبها القصصي وبيانها الفني صورة حياتهم وجليل مأثرهم وكلمة فلسفتهم التي ظلوا حريصين على الوفاء بها أمينين على قيمتها العليا ومثلها الخيرة ولان هذه القصص تتمسك برواية أساليب حياتهم التي يعرفون دقائقها ويستمتعون باعادة ذكرها لما تؤكده من فضائل وشيم ونخوة ومروءة وتضحية وحماية وصبر ووفاء .

لقد كانت أخبار الرواة وخاصة ماتعرض لاخبار الابطال والمشاهير موردا ثرا من موارد القصص وخاصة حين ينتقون من رجالها ممن عرفت بطولته وشهرت شجاعته أمثال بسطام بن قيس (سيد شيبان) وربيعة بن مكدم (حامي الضعينة) وفارس كنانة دريد بن الصمه (قائد جشم) وجساس بن مره وهاشم بن حرملة وغيرهم ممن تجسّدت في أعمالهم قيم البطولة وكانت أخبارهم مسردا لاحداث الرواة وبطولاتهم ساحة لتحريك المشاعر التي تشد المتلقين ولم ينس الرواة ابراز الشخصيات

التي كانت نماذج عليا في فصاحة الرأي والاهتداء الى مواطن الصواب والتعقل في الاحكام مثل أكثم بن صيفي وقيس بن عاصم والحارث بن عباد وعبدالله بن جدعان ٠

فالرواية بكل مضامينها وأحداثها وشخصياتها سلسلة قصصية تتوالى فيها الاحداث وتبرز المواقف من خلال الخبر الذي يروى والحكاية التي تمتد عبر السنوات الطويلة والخصائص التي تتراكم في السجل التاريخي وهي في كل عصورها وسيرها تمثل القناة الفكرية والثقافية التي تعبر عن الحاجة القائمة وتدل على الواقع الذي كان يفرض عليهم هذا النوع الادبي لتظل تأثيراته في نفوسهم مدعاة للاثارة وهواجسه سببا من أسباب التمسك بما يروى والالتزام بما تثيره من خصائص عدة حرصوا عليها وآمنوا بقيمها ومثلها ٠

وان العالم الفسيح بصحرائه اللا متناهية والليل الطويل بجلاله الذي تلتصق نهاياته بحوافي الهضاب أو كثبان الرمال وتختفي نجومه بين شعاب المرتفعات التي تحيط بهم كان مثار خيال واسع وخلق تصور متعدد الابعاد ٠ أما الوديان التي كانت ترتبط متخيلاتها بأساطير رهيبة ومخاوف مرعبة فكانت لها في أحاديثهم ذكريات لا تخلو من غرائب بعد أن اقترنت بالجن التي أفرد الشعراء لها مساحة من قصائدهم ووقف عندها الجاحظ في حيوانه فأفرد بابا لمن ادعى من الاعراب والشعراء انهم يرون الغيلان ويسمعون عزيف الجن وذكر من الاشعار والقصص الشيء الكثير وأصبح للجن جبل ووادي ومواضع ونسبت اليهم أعمال وصنفوا مراتب وتجاوزوا ذلك حتى زوجوهم وتزوجوا منهم ٠٠

أما القصص فقد اتسعت مساحتها عند التوزيع على أجزائه السبعة ٠

فالفيض الزاخر الذي قدمته الاخبار والروايات وما رافقها من وقائع كانت مادة غزيرة تصرف فيها أصحاب القصص فمدت خيالهم بمادة جديدة وأغنت ثروتهم الادبية بوافر من المواقف وأتاحت لهم الفرصة للحديث وهيأت المناخ المناسب ليتخذوا من أخبارها ما يلون حكاياتهم ويضيف اليها من النفس الادبي ما يجعلها مقبولة ومستساغة تمنح السامعين متعة التشوق وتنقلهم الى العالم الذي يجدون فيه امالهم ومطامحهم وتعزز في أعماقهم قيم الخير التي عرفوها ومباديء المروءة التي عاشوا من أجلها ومآثر المفاخر التي ألهمتهم كرامة الوفاء لكل عمل خير ومكرمة حميدة ٠

ولم تنقطع أخبار القاص في العصر الاسلامي بعد أن اتسع دوره وعظمت منزلته وهو يسير مع سرايا المسلمين يحرضهم على القتال ويحبب اليهم الجهاد ويذكرهم بالامجاد ويستثير في أعماقهم أسباب النهوض وعوامل التوثيب ٠٠ ففي اليرموك خرجت الروم في تعبية لم ير الراءون مثلها قط وخرج خالد في تعبية لم تعبّها العرب قبل ذلك فخرج في ستة وثلاثين كردوسا الى الاربعين ٠

وكان القاص أبو سفيان بن حرب وقد شهدها الفا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم نحو من مائة من أهل بدر فكان يسير فيقف على الكراديس فيقول : الله الله انكم ذادة العرب وأنصار الاسلام ٠٠ اللهم ان هذا يوم من أيامك ، اللهم انزل نصرك على عبادك ٠

وتصبح مهمة القاص التحريض والتوثيب والتذكير لان المهمة أصبحت مهمة قتالية لا تنحصر في الرواية ولا تقف عند حدود ذكر الخبر وانما تجاوزتها الى الحقيقة التي يصبح فيها القاص مقاتلا ومحرضا ومذكرا بما تفرضه لوازم القتال وتتطلبه حاجة المواجهة وتلزمه دواعي النضال القتالي وهو يستوحي من حماسة المعركة ما يغذي به أوار

تاجيجها في النفوس ويستمد من روح الصمود ما يعزز قدرة القتال ويشحذ من ذاكرة التأريخ ما يحمل المقاتلين على الصبر والثبات حين تلتحم كراديس المهاجمين ·

وبقيت هذه المهمة قائمة في كل معركة لانها تؤدي دورها وتحفظ للنصر صورته بعد أن تلمس المسلمون فائدتها وقد أخذت هذه الطريقة أدوارا جديدة كلما تطورت أساليب انقتال واختلفت وسائله لتصبح قادرة على تحقيق الهدف واشعار الجند بأمجاد الابطال الذين يطرزون صفحات التاريخ بخوالد الاعمال وفرائد المواقف وروائع التضحيات ·

ومن الطبيعي أن يتحرك هؤلاء على المستوى الفني الذي يعطي القصة قوة التأثير وحدة المواقف لتصل الى القلوب فتثيرها وتلامس النفوس فتحرك دواعيها وتنتقي من المفردات ما تجعلها أكثر توفيقا في الاداء وأشد وقعا في المخاطبة وأحدّ دفعا في الاثارة ·

ان استعمال مفردة (قاص) ووروودها بصيغة الجمع تحدد المعنى الذي استخدمت فيه المفردة وتشير المعاجم الى مفردة قصة وتقول (معروفة) ووردت صيغتها بمشتقاتها خمسا وعشرين مرة في القرآن الكريم متبوعة بما يدل على الحكاية والعبرة والموعظة والرؤيا والانباء والآيات والحق وكلها تتضمن الغاية التي أوحى بها كلام الله عن طريق المخاطبة غالبا أو الضمير الغائب أحيانا لبيان الخبر لان القاص هو الذي يأتي بالقصة على وجهها وكأنه يتتبع معانيها وألفاظها ·

فالقصة الواحدة التي يستشهد بها في القرآن الكريم قد تكون لها أكثر من عبرة وأوضح من جانب وأوسع من زاوية ، لان المناسبة التي ترد فيها تؤكد الاختيار وتبرز حالة الاستشهاد بالمعنى المقصود وتكشف عن المعنى المراد وان تكرارها لا يعني انها تعالج الحالة نفسها أو تقف عند الظاهرة عينها ولكنها تأتي في كل مرة لتعرض حالة يقتضيها

السياق وموقعا تلزمه حالة الاستشهاد ووجها تفرضه طبيعة الآية الكريمة(١) .

فقصة موسى فيها مواطن عبرة كثيرة واستشهاد عدة منها بيان ان قدر الله ماض لا محالة وانه لا يستطيع أحد أن يغيره أو يرجئه مهما حاول واتخذ من أسباب ووسائل ويتجلى ذلك في قتل فرعون أبناء اسرائيل حذرا من ظهور الشخص الذي يزيل ملكه منهم الا انه ربي في حجره الشخص الذي كان مقدرا له أن يزيل ملكه .

ومنها بيان عاقبة الظلم ويتجلى في نهاية فرعون النهاية الوبيلة ومنها بيان نفسية الشعوب التي ينبغي لها أن تسلك طريق التحرر ويتجلى ذلك في تكوين نفسية بني اسرائيل الذين تربّوا على الذلة وذكر عنادهم وحبهم للدنيا ومحاولة سيدنا موسى اعدادهم اعدادا آخر يرفعهم من الوحل الذي يتمرغون فيه فلم يستجيبوا له حتى قضي الله عليهم بالتيه أربعين سنة أهلك فيها هذا الجيل .. ومنها بيان ان الحق له السلطان الاعظم على النفوس اذا عرفته وآمنت به .

ان هذا النموذج يؤكد السياق الذي كانت تقتضيه طبيعة القصة لتتكرر ولكنها في كل مرة تحمل واجهة وتؤكد حقيقة .

والقصة في معظم دلالاتها الخبر وهو القصص ، والقصص بكسر القاف جمع القصة التي تكتب والغرض منها وعظ الناس وأخبارهم بما مضى ليعتبروا واعلامهم بأحوال الامم السابقة وهذا ما وجدناه عند أعلام الرواية الاوائل الذين عرفوا بكتاباتهم .

ولم يكن الشعر وحده ثروة المجالس الادبية ولم تكن الايام وحدها

---

(١) ينظر كتاب التعبير القرآني للدكتور فاضل صالح السامرائي /٢٥١

خزين الرواة الذين حفظوا وقائعها وتداولوا ذكرياتها وانما كانت القصص رافدا اخر يعطي الحياة العربية نبضا جديدا وتعين الخيال على الامتداد الزمني ليتصل بعوالم غريبة ويطوق مجاهل انسانية يتصرف فيها الابداع بشكل أكثر تفصيلا وبوقائع أوفى تحليلا وقد وجد فيها العرب سحرا يشدهم الى أحداثها وتصويرا يغذي خيالهم وأجناسا من البشر يختلفون عنهم في كثير من مظاهر الحياة وأنماطا من العيش ثم يعرفوا عن أخبارها ما يجعلهم يمدّون الاستماع اليها حتى اجتذبتهم الدهشة وانتابتهم عجائب القصص ، فبدأوا يحتشدون لسماعها وينصرفون لحفظ ما يدور فيها ورواية ما يقفون عليه من طبائع البشر فأقبلوا عليها اقبالا يثير الدهشة ، وانصتوا اليها انصات المولعين وقد بهرتهم غرائبها واستهوتهم نماذجها وتبقى أخبار وهب بن منبّه موضع اهتمام المؤرخين لما تركته تآليفه من آثار في ثقافة الاجيال .

فهو كما وصفه ياقوت اخباري صاحب القصص وكان من خيار التابعين ثقة صدوقا كثير النقل من الكتب القديمة(٢) . وكان على معرفة وثيقة بمأثور أهل الكتاب واليه ترجع معارفه حول خلق العالم وتاريخ الانبياء(٣) . ومن اثاره كتاب الملوك المتوجّه من حمير واخبارهم وقصصهم ، وكتاب قصص الانبياء أو قصص الاخبار وهذه التآليف تمثل محاولة من محاولات تدوين التاريخ ، ورغم ان القيمة التأريخية للحوادث والاخبار والقصص التي وصفها قليلة للغاية الا انها تشير الى الاهمية التي كانت توليها هذه الكتب لمثل هذه الاخبار التي كانت رافدا من روافد الثقافة وقناة مؤثرة من قنوات التأثير في الحياة الادبية التي تعطي هذا الجانب أهمية متميزة حتى أصبحت قصص المغازي

---

(٢) ياقوت . معجم الادباء ٧ـ٢٣٢ .
(٣) ابن سعد . الطبقات ٧ـ٢ـ٩٧ .

ومناقب الصحابة تقرأ في الجامع الاموي بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز(٤) ٠

وكما حظيت هذه الكتب بأنواع القصص والاخبار فان كتب التفاسير والشروح قد أفردت للاخبار والقصص الاسطورية مساحة وربما يكون بعضها قد ألحق بالجاهليين من باب الوضع عليهم لكن تبقى فائدتها محصورة في مادتها الغزيرة ذات المحتوى الموسوعي في الرواية المتنوعة والادب بفروعه والتاريخ من اسطورة وقصة وأثر هيأت للباحثين مادة خصبة وقاعدة أدبية واسعة وفتحت أمامهم آفاقا رحبة لمجاراتها أحيانا والتأثر بها أحيانا اخرى ٠

وتقدم كتب التاريخ في مجال القصة والحكاية والاخبار والايام رصيدا ضخما، ولعل تاريخ الطبري يستأثر بأغلب هذه النصوص عن طريق الروايات المختلفة من جميع الكتب التي سبقته مثل كتب الامثال وتفسيرها أو كتب المغازي التي لم تصل الينا(٥) ٠

لم تصل القصص الى عصر التدوين عن طريق الرواية باللغة التي تداولتها وانما جاءت متطورة بلغة العصر الذي آلت اليه مكتسبة من اسلوبه ومنحاه الفكري الشيء الكثير، لكن الحدث ظل عالقا في ذاكرة الرواة عن العصر السابق ٠٠ أما العبارات والالفاظ التي لم تتغير فلعلّ المثل كان الصورة الواضحة لهذه القصص لكثرة ورودها ضمن القصة واعتمادها أساسا في البناء واتخاذها مدارا للحوار في داخلها ومثل المثل والحكم والوصايا التي احتفظت باصالة وصفها وحرص الرواة على ايرادها بنصها دون تغيير ، وقد كان لهذه الانواع فضل بقاء

---

(٤) فؤاد سركين ٠ تاريخ التراث المجلد الاول الجزء الثاني التدوين التأريخي /٧٣ ٠

(٥) ينظر تاريخ الادب العربي قبل الاسلام ٠ للدكتور نوري القيسي ٠ الدكتور عادل البياتي والدكتور مصطفى عبداللطيف /٤٢٧ ٠

القصة واستمرار ديمومتها لان لكل مثل حديثا أو قصة يطمح الناس الى معرفته(٦) .

وكان حرصهم يمتد الى حوار الابطال والشخصيات الرئيسية في القصة وان كون هذه القصص مروية باسلوب رواتها الاسلاميين لا يخرج بها عن خاصية عصرها ولا يطعن بانتمائها الجاهلي لانها مروية بروح العصر وأحداثها التي دفعت فيه مع المحافظة على أجواء القصة وتقاليد العصر الذي جرت فيه وأعرافه ومعطياته الدينية والنفسية والفكرية .

ويأتي كتاب التيجان لوهب بن منبّه دليلا على القصة التأريخية التي تسلسل خلق العالم من خلالها وهو يتدرج من عصر الى عصر حتى وجدنا الكتاب مليئا بالقصص التي تتكامل فيها العناصر وتتوحد أساليب الرواية ويبرز فيها عنصر التشويق ، فقصة المغارة التي فيها شداد بن عاد ، تروي أخبارا عن الصعاليك الثلاثة وما جرى عليهم .

وهي قصص تتداخل فيها الغرائب ويتسع الخيال وتعظم أخبار السنين والدوي العظيم ولوح الذهب المعلق وسقف البيت المرصع بأصناف اليواقيت(٧) . وأحاديث لقمان بن عاد الذي عاش ألفي سنة وأربعمائة وهو صاحب لبُد وما انتهى اليه بعد ان أيقن بالموت ودعا قومه الى أن يسلكوا به سبيل الصالحين .

وقصة الصعب ذي القرنين الذي قص رؤياه لجهنم والجنة وكيف علق سيفه بالثريا مصلتا وانه اخذ الشمس والقمر وتبعته النجوم والدراري ونزل بهم الى الارض (٨) . وكيف نزل على

---

(٦) نفس المصدر /٤٦٣ .
(٧) (التيجان في ملوك حمير) من ٦٦_٦٩ .
(٨) ن.م /٨٦ .

القصر ودخله فرأى فيه أعاجيب ثم سار حتى بلغ الى فج عظيم ثم لقيته جبال شم منيعة بها شعاب عظيمة ·

ثم مضى حتى بلغ أرض ياجوج وماجوج فقاتلهم فتغلب عليهم(٩)، فلم يزل يأخذها أرضا أرضا وامة امة حتى انتهى الى الارض الشماء فلم يزل يخرقها بالطرق وينزل العلو ويرفع الوهاد ثم بلغ جزائر الارض الرواب التي تزاور عنها الشمس عند طلوعها فوجد عندها قوما صغار الاعين صغار الوجوه مشعرين وجوههم كوجوه القردة ·· ويذكر أخبارا عجيبة عن هؤلاء الاقوام الذين لا يظهرون في النهار وانما يظهرون في الليل ويختفون من حر الشمس في المغارات والكهوف في الجبال ·

ويتدرج في الكتاب بغرائب الاسفار وعجائب الاخبار فيذكر أبرهة الذي يصل الى حنّو قراقر في رمل العراق وكيف ظهرت لهم الزمرة وهي صنف من الحيات تسكن الرمل قصيرة لها رأسان في طرفيها وما أكلته بهذا الرأس ألقته برأسها الاخر وهي لا تظهر الا في النهار وتعمى في الليل لان جميع حيوان الارض لا يستطيعها يسري سمها في الابدان، كسير البرق في الهواء تفر منها الثعابين والشجعان والافاعي ·

وقصة النبي سليمان والهدهد الذي حمل رسالته بمنقاره واختيار بلقيس رجلا لم تدع في أبناء الملوك أجمل منهم ولا أعقل ولا أشد ثقة ولا أبعد غاية ولا أعلى صوتا(١٠) · وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم وأفاض المفسرون في أخبارها افاضة كبيرة واستغرق التاريخ من هذه القصة أحداثا عظيمة وقصة النار التي كانت تعبدها حمير (١١) وقصة بن ذي يزن (١٢) التي

---

(٩) نفس المصدر ٩٨ـ٩٩ـ١٠٠ ·
(١٠) نفس المصدر ١٥٧ ·
(١١) نفس المصدر ٢٩٦ ·
(١٢) نفس المصدر ٣٠٦ ·

حيكت حوله أخبار وكتبت عنه السيرة وأصبح مادة لكثير من الروايات وبطلا من أبطال التاريخ .

واذا كان كتاب التيجان لوهب بن منبّه قد حفل بهذه القصص وغيرها وعاش في الذاكرة العربية قرونا طويلة وأمدّ الخيال العربي بأحداث غريبة هيأت له المناخ المناسب لكثير من الفنون الادبية فان كتاب أخبار عبيد بن شرية هو الاخر قد قدم لنا مادة بعد أن أصبحت المسامرة من أفضل لذات الخلفاء وأحاديث من مضى من أقرب الامور الى نفوسهم وأصبح أصحابها مؤدبين وسمارا ومقومين يقصرون عليهم ليلتهم ويذهبون عنهم همومهم .

وكان على صلة بمعاوية بن أبي سفيان يحدثه بحديث هلاك(١٣) عاد(٣٢٥) ومعاوية يستفسر منه عن كل حادثة وما قيل فيها من شعر وعن أمر هود عليه السلام والريح التي صرعته وعن لقمان بن عاد وكيف اختار طول عمره واعطي ما سأل ولكن لا سبيل الى الخلود .. ويروي أخبار النسور السبعة(١٤) (٣٥٦) ويتلوه بحديث جرهم وخروجهم من اليمن الى الحرم(١٥) (٣٩٦) .

ثم يرى أقواما اخرين يقال لهم الاحرار تطلع عليهم الشمس وهم قوم سود زرق الاعين طوال الوجوه طوال الانوف تشبه وجوههم وجوه الخنازير .

والمؤلف في هذه الاوصاف يوائم بين الاوصاف من حيث الصغر والطول وعقد المقارنة بين أقوام كل امة وما يوافقه من حيوانات .

---

(١٣) أخبار عبيد بن شربة /٣٢٥ .
(١٤) أخبار عبيد بن شربة /٣٢٥ .
(١٥) نفس المصدر /٣٩٦ .

ان الكتاب مليء بالقصص حافل بالاخبار يحتشد فيه الخيال الواسع وتمتد مساحة التصور التي تضفي على كل قصة عناصر التشويق وتمنح الشخوص قوى خارقة يتجاوزون بها قدرة البشر تتسرب الى قلوب المتلقين وتصل الى نفوسهم .

لقد شهد العصر الاموي حركة واسعة لسماع أخبار الايام والامم الماضية والاجيال العابرة والاحداث التي كان الناس يتشوقون الى سماعها وكانت هذه الاحداث أساسا لكثير من الاخبار التي هزت خيال المؤلفين وأثارت قدراتهم الفنية وحملتهم على وضع التاليف الكبيرة التي غذت العصر بثقافات متنوعة وملأت عليهم فراغهم وهيأت لهم فرص الاطلاع التي وسعت مدارك الناس وأغنت تجربتهم بما كانوا يتلقونه من أخبار .. وقد حفز اهتمام بعض الخلفاء بسماع هذه الاخبار ويمثل النص الذي أورده المسعودي عن معاوية بن أبي سفيان اهتمامه بالاخبار وحرصه وهو يؤذن للخاصة وخاصية الخاصة والوزراء والحاشية ويستمر الى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والامم وملوكها وسياستها لرعيتها وسيرهم وحروبهم ومكايدهم وسياستهم لرعيتهم وغير ذلك من أخبار الامم السابقة .. ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم لتحضر الدفاتر وفيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والاثار وأنواع السياسات ثم يخرج فيصلي الصبح(١٦) .

ويتخذ عبدالملك الشعبي محدثا ويحظى عنده بمكانة مرموقة(١٧)

---

(١٦) المسعودي . مروج الذهب ٣/٣١ .

(١٧) المسعودي . مروج الذهب ٣/٩٢ .

ويلتمس الحجاج محدثا مؤنسا يقرأ القرآن ويبصر الفقه ويعرف منازل القمر ويروي الشعر والايام(١٨) .

وتتصل أحاديث الايام برواية القصص التي أصبحت ظاهرة ثقافية اخرى بعد أن أخذت شكلا متطورا في العصر الاسلامي .. فقد حدث الرسول صلوات الله عليه عن تميم الداري على المنبر الجساسة والدجال وعد ذلك من مناقبه(١٩) . وروي عن ابن شهاب ان (أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الداري في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) (٢٠) .

ويبدو ان طريقة القاص قريبة من الطريقة المألوفة حيث يجلس القاص في المسجد ويتحلق الناس حوله ليروي لهم مما ألفوا سماعه وانسوا أخباره ولكل مرحلة وعصر أخبار تناسب المقام .. ففي مسجد الرسول صلوات الله عليه كان التذكير بالله وأخبار الامم، وفي العصر الاموي اتسعت رواية الايام وسير الامم وأخبار الوقائع وسياسة الملوك ولم تنحصر القصص في هذا الجانب وانما امتدت لتشمل أبواب أوسع وموضوعات أكثر غرابة لما وجده القاص من اقبال واعجاب وعرف الحسن البصري بانه قاص وأغلب قصصه الوعظ والتذكير بالآخرة واطاعة الله وأصبح القاص يتقاضى أجرا .

ومن الملاحظ ان أكثر الذين برزوا في هذا الضرب الفني هم من أهل اليمن، فتميم الداري ووهب بن منبة وكعب الاحبار كلهم من اليمن وهي ظاهرة تؤكد الينابيع الثقافية التي كانت ترفد الحضارة اليمنية بالاخبار والقصص والملاحم .

---

(١٨) المسعودي . مروج الذهب ٣/١٣٦ .
(١٩) ابن حجر العسقلاني . الاصابة ١/١٨٣ .
(٢٠) ابن حجر العسقلاني . الاصابة ١/١٨٤ .

كانت أخبار الايام وجها من وجوه القنوات الثقافية التي تعوّد عليها العرب لانها تجمع الخبر المشوّق والحدث العزيز والقصة المثيرة والمأثرة الكريمة ، وتعبر عن الجو الذي ترتاح اليه نفوسهم وتسمو اليه مطامحهم وتكبر في رحابه آمالهم وهم يتزودون بكل ما يجعل به حياتهم أكثر عطاء ويستذكرون كل مجد عزّت عليهم أخباره حتى يوشك أن يحس القاريء بأنه يعيش جو أيام العرب قبل الاسلام لما كانوا يولونه من أهمية ويعنون به من تفاصيل وافية وما تساورهم من انفعالات حسية وهم يستمعون الى أخبارها وما يعتريهم من حماسة وهم يزدادون اعجابا وزهوا بعد استذكارهم لما كانت تؤديه قبائلهم ويسجله أبطالهم .. فقد وقف جرير عند يوم (طخفة) أكثر من ثلاثين مرة وذكر (ذونجب) حوالي ثلاث عشرة مرة وأكثر من ذكر يوم الوقيط وشعب جبلة (يوم الصفا) ويوم رحرحان ، واستشهد الفرزدق بأيام الكلاب(٢١) ويوم النسار(٢٢) وأيام أراب(٢٣) وذي بيض(٢٤) ويوم الصليفاء(٢٥) والهضيبات(٢٦) ويوم نطاع والهذيل ويوم حزن ويوم ضريّة ويوم حمض، ويأخذ يوم ذي قار سبع مواقع فخر واعتزاز(٢٧) .

ان الحديث عن الاهتمام بالقصص لا يأتي من باب الاستمتاع أو الاطلاع على أخبار الامم والملوك فحسب وانما يأتي من باب استيحاء أخبار القبائل التي ينتمون اليها وأيام الفخر التي كانت تتأثر في

---

(٢١) الفرزدق . الديوان /٩٩-٢٤٩ .
(٢٢) الفرزدق . الديوان /١٧٣-٣٥٦ .
(٢٣) نفس المصدر /١٠٣ .
(٢٤) نفس المصدر /١٢٦ .
(٢٥) نفس المصدر /١٨١ .
(٢٦) نفس المصدر /٣٦٧ .
(٢٧) ينظر الديوان ١/١٩٥ . ٢/١١٠ . ١٤٩ . ١٩٦ . ٢١٧ .

ثناياها وما قيل من قصائد وذكر من مواقف وعرف من مشاهير الرجال بأعمالهم التي كانت تعزز ثقة هؤلاء باسلامهم وفخرهم بأمجادهم ، وهي اصول اعتمدوها في المديح والفخر وتزخر دواوين الفرزدق وجرير والراعي بأسماء القبائل والاعلام التي لا يمكن حصرها وهي في الاغلب الاعم تمثل المشاهير الذين أبلوا البلاء الحسن وتركوا على صفحات الايام ذكريات عزيزة كانت مادة غزيرة وحصيلة شعرية يباهون بها ويفاخرون خصومهم بما امتلكوه من سمعة كبيرة وأعمال خالدة ويفاخرون خصومهم بما امتلكوه من سمعة كبيرة وأعمال خالدة وفروسية متميزة، وقد شغل الاحتفاظ بالنسب والعودة لاستذكاره والحرص على تأصيله مساحة اخرى من القصيدة وهي عودة لا تعني التعصب وانما تأتي من باب تأكيد الاصالة والاحتفاظ بالجذور والاحساس بالانتماء المشترك الذي يعطيهم قوة الرسوخ وثبات التواصل وقوة المواجهة والاحتماء .

واذا كان العصر الاموي قد شهد هذا التوجه الكبير فان دواعي العصر العباسي قد أثارت اهتمام الناس الى القصص بعد أن اتسعت حلقات الدرس وانتشرت مجاميع أهل الفكر والوعظ في المساجد وأصبحت الطرقات العامة أماكن يجد فيها القاص طريقا لتلاوة ما وقف عليه ، وهي ظاهرة أشارت اليها كتب الادب وعرضت لها كتب التاريخ وخاصة حين تشتد أزمات الصراع وتختلف وجهات النظر ويضطر الحكام الى تشجيع هذا الضرب أو منعه على وفق ما تقتضيه ظروف الحكاية أو القصة وقد مهد هذا الجو لانتشار الانواع الادبية التي بدأت تعرض لالوان الحياة العامة وهي تتحدث بأساليب القصاص والرواة وأصحاب المقامات ، ومنع المعتضد (سنة ٢٨٤ للهجرة) القصاص من القعود على الطرقات .. وعملت بذلك نسخ قرئت بالجانبين بمدينة السلام في الأرباع والمحال والاسواق يوم الاربعاء لست بقين من جمادى الاولى من هذه السنة .

ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منها القصاص من القعود في الجانبين .

وفي جمادى الاخرة نودي في المسجد الجامع ينهي الناس عن الاجتماع على قاص أو غيره ومنع القصاص من القعود .

الطبري ١٠/٥٤

وجاء في أحداث سنة خمس وستين ..

وكان فينا قصاص ثلاثة رفاعة بن شداد البجلي، وصحير بن حذيفة بن هلال بن مالك المري، وأبو الجويرية العبدي . فكان رفاعة يقص ويحضض الناس في الميمنة لا يبرحها . وجرح أبو الجويرية اليوم الثاني في أول النهار فلزم الرحال وكان صحير ليلته كلها يدور فينا ويقول : أبشروا عباد الله بكرامة الله ورضوانه ...

الطبري ٥/٥٩٨